سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي سوريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

الفصل الثالث

أبو الهول الأكبر

الصحراء المترامية ، الليل الشامل ، الفضاء ، الزمان ، ضباب ذهبي يغمر الأشياء ؛ وأبو الهول الشامخ يبدو بين الأشياء كأنه الكائن الجدير بالوجود .

يرتفع الستار : الليل داج ، والغيوم تنزاح قليلا قليلا ، يبدو القمر والنجوم تبعث واحدة فواحدة كأنها تنفض من النور ، وأبو الهول كأنه ينشر من الظلمة ، وعلى قدمي أبي الهول عاشقان مصريان !

المشهد الأول

أبو الهول ، العاشقان

العاشق — تجب العودة سريعاً ؛ انظري فالليل الأكدر الذي يمشي بين النخيل يترك القمر يتقطر ؛ ان أيام مصر ترتعش حولنا ، والمساء يدفع اللحظات بين يديه كمسبحة سوداء ، والسكون ذاته صلاة غريبة ، والرمال تتألق كالحرير الأرجواني .

لي من العمر عشرون ، وها إني أحبك !

العاشقة : عيناك اللامعتان لهما من البحر رقته العميقة

العاشق — منذ أي زمن تهويني ؟

العاشقة — أني لي أن أعرف ؟

العاشق — ألا تعرفين ؟

العاشقة — يجب أن أهواك من اللحظة التي كنتُ فيها ، وإني لأذكرك في كل أيامي الجميلة !

العاشق — قد انتصف الليل

(ينهض)

العاشقة — أين ترى الساعة ؟ آه إني أريد ألا أعرفها ، فصوت المؤذن الذي يتعالى لا يصل إلينا ، هنا الساعة تمضي على استحياء لئلا نشعر بها

أعجز من أن يشفيه من آلامه !

إنكم لتدركون إذ ذاك أن الله قد أوجد الحكمة مدبرة لشؤونكم لا راهبة محبة تحنو على أسرة الأعلاء منكم . إنكم لتدركون بأن قلب الانسان لم يقل كلمته الفصل عندما أعلن أنه لا يؤمن بشيء لأنه لا يرى شيئاً ...

إنكم في ذلك الحين لتجيلون أنظاركم على ما حولكم مفتشين عما تتوسمون الأمل فيه ولتذهبوا إلى أبواب المعابد محاولين فتحها فتجدونها مقفلة في وجوهكم فيخطر لكم أن تلجأوا إلى الرهبنة التي لا يخرج المتذرون منها إلا إلى قبورهم ، ولكن الاقدار تسخر بكم وتقذف اليكم بزجاجة خمر وامرأة عاهرة ، فاذا ما كرعتم الخمر وقدتم العاهرة الى فراشكم ، فتبينوا مصيركم واعلموا الى أية هاوية تنحدرون

(يتبع) فليكس فارس

العاشق — إن الساعة قد تسجّل فى قبة السماء الملأى بالنجوم ، لأنها تحدد الزمن بضربة حزينة ؛ إبرتها السائلة هى شعاع القمر الوهاج الذى يهبط من عل ليعمل على تفريقنا ، يجب أن نذهب . . . . هيا !

العاشقة — لماذا هذا التبكير ؟ فالرجوع هو الموت ، وأنا أريد أن أحيا على فلك ! الحياة بدونك هى صحراء مخيفة جدا ، والهواء الذى يعجبك يجعلنى أغار أحياناً منه . أريد أن ألثم عينيك وفلك

العاشق — إن شفتيك رقيقتان

العاشقة — ومن أحب مثلنا ؟ لا أحد . . . هذه المرة الأولى التى ينبغى فيها أن يحبوا كما أحببتك ؛ ونحن ابتكرنا هذا الحب . ألا قبلة مستطيلة أيضاً تطبعها على فمى الملتهب ونعود بعد ذلك يا حبيبى !

العاشق — حبيبتى !

(يتعانقان شديدا ، ثم يبتعدان والفتاة تلتفت إلى الوراء)

العاشقة — هل رأيت ؟ لقد كنا فى ظل أثر . . . يقال إنه ذو وجه خالد جميل ، كم عبر به من السنين هنا !

العاشق — إنى أجهل ذلك . . .

العاشقة — سنرجع يوماً إذا شئت مع الفجر . تعال فضع قدمك موضع قدمى ، فما عسى يكون أبو الهول ؟

العاشق — لا أعلم . . .

(يبتعد الحبيبان)

المشهد الثانى

أبو الهول (وحده) القرون

تهب القرون فى منتصف الليل وكن جالسات كالأشباح السوداء على قدمى أبى الهول

القرون — أيها الملاك الحجرى ! بمَ تأمرنا فنعمل ؟ نحن حرس لك !

أبو الهول — لم أعد أريد حراستكن ؛ فذرننى وحيداً . كم نجوم تنظر إلىّ ! أريد أن أظل وحدى هذه الليلة

القرون — نحن هنا دوماً نحرسك

أبو الهول — دعننى هذه الليلة السرية البارزة !

القرون — لتكن كلمتك مسموعة !

(ينسحب كل خيال مطأطئا رأسه إزاء أبى الهول مدمدماً بصلاته)

الخيال الأول — يا سيداً من حجر !

الخيال الثانى — يا أوزة الخلود !

الخيال الثالث — يا ملك الزمان !

الخيال الرابع — يا جدار الثوانى !

الخيال الخامس — يا عجيبة مصر !

الخيال السادس — يا حكومة العوالم !

الخيال السابع — يا زهرة حجرية مزدهرة على صفحة السماء !

الخيال الثامن — يا خلية ثابتة تخرج فيها اللحظات عسلا !

الخيال التاسع — يا وثناً خالياً من الرأفة

الخيال العاشر — ياشرفة المشاهد !

الخيال الحادى عشر — يا نور المشرق !

الخيال الأخير — يا إلّه السحب وداعاً ! . .

(تتوارى القرون ، أبوالهول وحده مع الليل والنجوم)

المشهد الثالث

أبو الهول وحده

أبو الهول — بلى ، لأترك وحدى ، ذلك خير ! أيها الليل إنّا وحدنا الآن ، ليرمق أحدنا

الآخر ! لقد سئمت — طيلة النهار من الأنوار الوضاءة ، وحين تعودنى بارد الأنفاس ، وتحط رحالك على حجرى ترتاح روحى ، أنا فى النهار مخلوق كبير من حجر ، مزعج أصم ، حتى إذا جئتنى غمرتنى بحياة جديدة ، وأصبح القمر مروحتى التى بها أجلب الهواء

أيها الليل البالغ من الكبر عتيا ! ها نحن شاخصان وجهاً لوجه . لننظر ؛ فالشمس المنبعثة تحمل أشعتها ، وأن باستطاعتنا — حين تبعث فىّ الروح — أن نتحد اتحاداً ساميا .

ماذا تقول ؟ وأنت ماثل بابتسامتك الفضية ، هل نعلم عن هذه الكائنات والناس والآلهة والموتى شيئاً ؟ هنالك سمير اميس ، وهنالك ساردانابال . وهذا الرماد الشاحب ، إنهم يدعون هذا كله صحراء . . . الصحراء كلمة كبيرة ذهبية لا تشبه شيئاً ، وعليها بدأت تنزل عظمتك وكبرياؤك .

هذا هو الرماد . الرماد ، الرماد ، . . . هذا — أيها الليل — هو رماد من لمحونا فى القديم . إنهم ينقمون على صمتى ، ولكن من ذا أكلم فى هوتى السحيقة ؟ فالنهار طفل لا يعلم شيئاً ؛ النهار هو ذلك الطفل الكبير المتفائل الذى يضحك ! حين يكون الانسان مثلى ، يقدر أن يتكلم مع الليل ، مع الليل وحده لا مع سواه ؛ على شفا اللانهاية المسدلة قناعها . إن عندى أسئلة ، والليل عنده نجوم ! (يتنهد)

نجومك ، أعلم أسماءها الخفية ، وناظرى البعيد فى الليل يتسامى إلى تلك العيون ؛ وأنت بماذا تفكر ؟ أليس الأجدر بنا أن نصمت ؟ موسى لم يكن مهده إلا لحداً فسيحاً ، وقيصر كان ذلك القاتل الذى لم يعد ، بلى ! نعلم حقاً ما علمناه . قد وضع هنا قبعته المجبولة من طين . « قيصر » اسم زاهٍ جداً لحظ زائل ! وماذا تقول عنه أيها الليل ؟ وعن ذلك المحارب المتحلى بالمزايا الرومانية ؟ قيصر الكبير مات ميتة راع حقير . ليس القيصر بقيصر إذا لم يملك على كليوباطرة ، وهذا اسم عظيم أيضاً ! يُخيل إلىّ حين أفوه بهذا الاسم أن المساء زاد نداوة وطراوة ، وأن الفضاء غمرته أصوات نواقيس

كانت تأتى إلى هذا المكان ! أما نرى أثرها فى هذا الطريق ؟ ألا تذكر مثلى ؟ ألا تذكر ؟ لقد غبر عشرون قرناً دون أن يطمس أثر قدميها ، ودون أن يبيد وجودى شيء . كانت تضحك وتمشى بخطوة خفيفة ، هى خطوة الملكة الراحلة . كانت تضحك وأسمع ضحكاتها أحياناً ، وما أحد سمع مثلى رنين ضحكتها الطافحة بالغبطة والسعادة ، كأنما سامعها يخيل إليه أنه يرى لؤلؤة تذوب .

(كأنه يسمع صوتا لليل يدوى بالقرب من أذنه)

أنت تقول إنها كانت شقراء ، وأظن ذلك حقيقة . ألا ترانى أضحك سخرية حين يريد هؤلاء العلماء ، هؤلاء العلماء ، هؤلاء الجهال ، أن يبعثوا الماضى وينشروا الغابر ؟ وإنما أنت وحدك ، وأنا ، نهيم فى هذه الأجواز المظلمة ، وأنت وأنا قد رأينا كل شيء

بلى ! قد تكون أنت أكثر علماً منى لأنك تهوى على الآفاق البعيدة بجناحك الكبير الأزرق ، تدور أنت حول الأرض ، وأنا أبقى راسياً فى مصر ! ولكنك لا تدرى — برغم ذلك — سراً أنا أدرى به منك ، سر ليلة تموز ، وليلة ايلول ، لأنى كنت أفكر حين كنت ترتجف ! هنالك سر أعلمه دون

الورى وحدى . لقد ظن « أوديب » أنه سيقدر على استخلاصه منى ذات مساء ، وقد ذهب يبشر الملأ بانتحارى . هأنذا أضحك ساخراً ، لأن أبا الهول يحيا بينما هلك (أوديب)

أأقتل نفسى ؟ ياسخرية القدر ! لقد التهمت الأفئدة من كل مكان ، ورأيت الجميع يبيدون وأنا باق سرمد ! أتنشق الظلمات كالفجر ، وأضرب بسياطى القرون التى تتقهقر ! وأحياناً كنت أبتغى أن أرأف ، وأن أمد يدى إلى المجاز الانسانى ، ولكن الموت كان يكر عاجلاً ، والرجل الصلب كان عمره أقل مدى من خطرة من خطراتى !

(يبدو مارسيللوس وباريس)

المشهد الرابع

أبو الهول ، مارسيللوس ، باريس

باريس — إن الطريق الموحش الذى يؤول بنا إليه قد انتهى ، وهاهو ظله يتراءى لنا فى الليل . هذا هو ! لنقترب فى هذه الظلمة الحالكة ، ابدأ قبلى بالكلام ، فان بى خشية

مارسيللوس — لا ! كن أنت البادىء يا أخى !

باريس — أنت :

مارسيللوس — كله بأسلوب اين !

باريس — الظل الذى ثقب — هذا الماء — موضع عينيه يُخيل إلىّ أنه يخرج عنهما نظرة عميقة كالوجود :

أبا الهول العظيم ! نحن هنا . . . لقد سمعنا نداءك المجهول وقد أتيناك

مارسيللوس — بلى ! قد أتينا !

باريس — إن صوتك ، من أعماق الوجود قد نادى روحينا . إيه يا أبا الهول ، الاله الذى ليس بالاله ، والمرأة التى ليست بامرأة ! أجبنا ! لقد دعوتنا فجئنا

مارسيللوس — لقد جزنا طرقا مظلمة ، ووصلنا طارحين عنا ذلك العالم

أبو الهول — وما يجدى الكلام منى ؟ كل مخلوق لا نفع له . لا جواب لكما عندى . انطلقا فى طريقكما

مارسيللوس — لقد قلت لنا « تعالوا » بلهجة ليست بشرية

أبو الهول — لا أذكر هذا النداء لأنى كنت ألقى ندائى فى طيات السكون لا أعين أحداً . هذا حق . ولكنى لا أعلم من ينبغى أن يحفظه ، ولا أدرى أبداً من يجب أن يلبى ويأتى ...

مارسيللوس — نحن !

أبو الهول — (بعجرفة) انتما ؛ وما تعنيان بذلك ؟

مارسيللوس — (يزهو) بلى ! نحن ؛ رجلان يرغبان فى كلامك

أبو الهول — (يقهقه)

رجلان ... وما معنى ذلك ؟ رجلان ؟

مارسيللوس — وقد ساورهما القلق .

أبو الهول — (هازئا) هل تعلم قيمة الرجلين عندى ؟ إنهما أحقر من حبتين من الرمل فى الظلام البشرى ، لأنى رأيت من البشر ما يفوق عدداً ما رأيت من الرمل

مارسيللوس — ولكن فى كل رجل انسانية بأسرها

أبو الهول — أنظر إلى ما تبقى لى من عشرين قرناً بشريا ! هذا الرماد الذى أضع عليه مخالبي ... لا لا ! دعنى وحدى فى هـذه الزاوية ، فلا شىء عندى أقصه عليكم أيهـا الرجال الذين تحدثونني ! محدثى الوحيد هو هـذه الهوة المـكوكبة . فيمَ تريدون أن تتحدث يا كائنات عمرها عمر ساعة ! هنا الذى يحيا دواماً إزاء من يموتون . ليس بيننا صلة تربطنا ! إننى لم أعد ألقى أبداً الـكائنات التى أحببتها . فى البدء حين كانت الريح تهب عليلة رقيقة ، أملت ناظرى إلى هذه الـكائنات البشرية وما كنت أدرى أن سـيدركها العفاء وشيكا ؛ ولـكنى رأيت كل هـذه الـكائنات تهوى إلى المنحدر ! وهكذا أصـبحت لا أريد أن أجيل ناظرى الحجرى الروع فى هذه الانسانية الزائلة بمرارة

دعونى أنظر إلى السماء أيهـا المخادعون ! فالـكواكب أطول عمراً من البشر ، وانطفاؤها أبعد من انطفائـكم

باريس — ربمـا كان ذلك ! ولـكن هذه النجوم السابحة فى السماء الملتهبة ، هل تراها تتألم ؟ أجفانها الفضية ، ونظراتها النورانية ، ربما كان لها فى الأعالى خفقات أكثر طولا ، ولـكن الشىء الذى لا تملـكه فى سمائها الزرقاء ، هو قلق الانسان الممدود على هـذه الأرض ؛ وإذا قدر للانسان هذ الحظ المتقلب — كما قلت — فذلك لأنه سريع الاشتعال ، سريع الانطفاء

مارسيلليوس — ولهذا ترى أرواحنا ترزح تحت الألم ، وأنت المشرف علينا ، الثاوى على صخرتك الباردة ، نريد منك أن تعلمنا — بصوتك — لماذا نحيا ، ومن هم الناس ؟ أنت الذى تعلم سر الـكون ينبغى أن تقول لنا

أبو الهول — (بسخرية) :

هل تظن أننى أعلم ؟ لا أعلم إلا الابتسام ... سر الـكون ! وهل للـكون سر فى الحقيقة ؟

باريس — أجب ! ماذا نصنع ؟ ما هوألمنا ؟ وأين تتوارى هذه العوالم ؟ هذه النجوم ؟ وهذه الوجوه ؟

أبو الهول — ولهذا جئت تمكر علىّ هـذه المشاهد ! دعنى ! أريد أن أنام ...

باريس — قلت لنا : تعالوا !

أبو الهول — قلبكم المضطرب صور لـكم ذلك . إنى أنادى : تعالوا نداءً غير مقصود . وليزعم من زعم أنه نودى فى هذا الظلام . انظروا إلى هؤلاء الأطفال الذين ارتدوا الـكبرياء ؛ هؤلاء الأقزام ، أقزام لحظة يأتوننى ويزعجوننى ... هذه الصحراء الترامية الأطراف ، الحمراء اللون سرير راحتى . فليتركونى نائماً ...

باريس — ستتحدث إلينا !

أبو الهول — ومن يجرؤ على التكلم كالآمر فى هذه البقعة ؟ أين تراك قائماً وفى أى مكان ؟ أنى أود رؤيتك . أجاهل أنت تلك العصور التى تحيط بى من كل جانب ؟ أجاهل أنت أنى إذا أومأت باشارة صغيرة هرع بلبى — إيماءتى — ثلاثون قرناً — حانية صاغرة لندائى !

باريس — كفى ...

أبو الهول — لا يستول عليك الغضب ! فقد ألفت أن أسمع مثل هذا الصياح ، وأرانى محتملاً كل هذا بسكون نفس . رأيت كل شىء يزول من

آلهة وكهان وأبخرة . رأيت بابليون ولم أرتع لرؤيته ...

باريس — أراك تقابل كل الجهود البشرية بابتسامة التهكم !

أبو الهول — لا لا ! إننى لأسخر منه ولا أتهكم إننى أحيا بعده ! ماذا تنتظرون منى ؟ أكلمات ؟ أصداقة ؟ أنا لم أعد أعبأ بشىء لكثرة ما رأفت وأشفقت ! الحقيقة ! سل القمر عنها . قد رأيت كثيراً من الحقائق ، حتى أوقن بواحدة منها

مارسيللوس — يا أبا الهول !

أبو الهول — حقيقة ! لقد رأيت أكثر من عشرين حقيقة . كل الحقائق تزحف إلى هذا المكان باطلاً زحفها . وكل حقيقة مالئة الأناء الذى لا ينضب ، فذرونى أنام فى لحدى الرملى !

مارسيللوس — لا لا ... ستقول لنا

باريس — لقد كنت مغنياً ، كنتُ شاعراً ، وكانت الجماعة تعترف لى ، وقاعة التمثيل مقام دعوتى . أردت — يوماً — أن أؤلف قطعة عنك . وبينا أفكر فيها وأجمع الفكر حولها ، إذا بى أراك ، أراك تتخايل — فى قلب أبياتى وتناديني ! وبسمتك — فى الليل — كانت تضىء لى سهراتى ، واسمك حين يذكر يبث فىَّ روح اليقظة

أبو الهول — صه ! إننى لم أدر شيئاً

باريس — ها أنا ، ذو الشهرة الكبرى التى لبث (پاسكال) قلقاً من أجلها ، شهرتى هى شهرة « موسى » المتضرع للآله حين خط على صحيفته اسمك العظيم الحزين . إن اضطراباً عنيفاً يرسو فى روحى . لقد عريتنى من كل شىء كنتُ أعبده وأقدسه . أنت وحدك عظيم . أنت وحدك الذى تخشاه القلوب . أنت وحدك جميل ! الفن — تحت قدميك — يضيع زخرفه كزبيقة تتقاذفها الأمواج ؛ وأكبر آثارنا الرفيعة تغدو خواتم فى أصابعك !

لا لا .... سوف تكلمنى ... لأنى أريد ذلك !

مارسيللوس — ستكلمنا ؟

أبو الهول — من قال : أريد !

باريس — أريد ...

أبو الهول — ما عمرك ؟

باريس — فى الثلاثين ...

مارسيللوس — فى العشرين ...

أبو الهول — (ساخراً)

العشب أطول عمراً منكما ! أطفال ! أطفال ! عشرون ربيعاً ! وتقولان هذا ! ترفعان الرأس شامخاً وجفونكما فى اضطراب . لا حق لكما فى قولكما . عشرون عاماً ! لحظة قصيرة ، نظرة ، بسمة ، وإنها تلك المدة التى أقضيها لتحريك مرفق الكبير . وتهدة واحدة منى لها ضعف هذا العمر . ولكن الفضاء هنا مفعم بالكهولة الخالدة . وهذا هو الخلود يصفر على جناحى . هذه الشجرة ؛ هذه النخلة البعيدة ؛ رأيتها حين وجدت ابنة فرعون موسى عارياً فى ماء النيل . عشرون عاماً ! يا لها من جرأة غريبة ! تقول عشرون عاماً أيها الطفل ! الذى يعتقد بها ويُزهى عجباً . أيتها العشبة الحقيرة الناجمة على قلبى الفانى ، ينبغى أن يكون له عشرون عاماً حتى يكلمنى بهذه اللهجة !

مارسيللوس — البطل إذا كان أكثر فتوة وشباباً ، كان أكبر عظمة !

أبو الهول — إذا لم يكن لك إلا العشرون فلقد ولدت إذاً الآن . عد إلى بعد ألفى عام

وحينذاك نتكلم . لقد سئمت من الليل ، وضجرت منكم ومن أسئلتكم ، أريد أن أنام قرناً دون أن أجيبكما !

عشرون عاماً ! أجل قصير لا يكفي للؤلؤة تتفتق !

كليوباطرة — عمر نظرتها إلى النهار وهو يشرق !

جولييت — عمر سماحها بقبلة !

روميو — ذاك الطفل الوديع الخجل الذي قال لأبي الهول بأن له عشرين ربيعاً

مارسلليوس — كفاك سخرية مني !

أبو الهول — أأنا ساخر منك ؟ إني أحدثكما لأنكما أردتماني على ذلك . حسن ! سأنام قرناً . فماذا تريدون أن تعلموا يا عابري الطريق ؟ أإذا كانت كليوباطرة ذات غدائر لامعة أو سود ؟ كنت أحدث الليل عنها هذا المساء . لقد كانت غدائر ذهبية ، أذكر ذلك ، وهل تعلم أنها لم تكن جميلة

باريس — ولكن . . .

أبو الهول — أن هذا يدهشك حقاً . . . ولكن أصغ إلي ! ضحكة زهرة محطمة ، وعنق شفافة إني لأبسط على كل شيء وجهها الغريب الوردي الذي لا يؤسر . وجهها الغريب الطافح إلى الأبد بالرقة الساخطة والجمال الغائب

آه من ذلك القارب الملآن بالعبيد والطيوب الذاهب دون أن أراه ! الممالك التي تتلاشى في القبل وفي السحر ؛ في المشاهد الخلابة أحبوا كثيراً وشغفوا كثيراً بهذا الوجه الصغير ، بهذا الوجه الزائل . لقد عالقوها كثيراً ، وهذا هو كل أسطورتها

أنا نفسي كنت مستهاماً بها ؛ وقبل قليل نطقت باسمها فقطرت من عيني دمعة

والآن ماذا تريد أن تنتزع مني ؟ أأسناداً وأدلة أم أذاعات عن قيصر وبومباي ؟ قد تكون هذه الساقية الزرقاء حسامه ، لأنه طرح يوماً سيفه في وثبة عظيمة من وثباته ، ولما أشرق النهار رأيت هذه الساقية تلمع

ماذا تريد أن تعلم أيضاً ، يا واضع الأسئلة ؟ كل هذه الأسماء العظيمة التي لبثت نفوس أصحابها شاحبة باهتة . كل هؤلاء القياصرة وهؤلاء الملوك هؤلاء كلهم عندي أموات الأمس ، عرفتهم وعاشرتهم . كل هؤلاء رأيتهم يموتون كالأشياء الحقيرة ، لأني كنت الشاهد الذي يرى كل شيء يتلاشى أمام عينيه

كنت الحكم الخالي من الرأفة ، والقارب الفارغ من ملاحيه ، والملاك من غير فردوس ، وملاكة البحر من دون أمواج ، والعاشقة من غير قبلة ؛ وفي سربري الحجري أرى كل شيء يركض إلى زواله ، ويعلم أن الوجود هو الفناء . . .

باريس — لا نريد هذا . . .

أبو الهول — ماذا تريد أن تعلم ؟ أتسألني عن أوديب ؟ إنه كان ملكاً كملوكنا . لقد كذب كثيراً ها أنت ترى أني لا أزال هنا

باريس — لا أطلب هذا . . .

(يتبع) خليل هنداوي

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر